

العنوان:	من صعوبات البحث فى الديموغرافيا التاريخية للمغرب الوسيط الطاعون الأسود نموذجاً
المصدر:	مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الناشر:	جامعة محمد الأول - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي:	نشاط، مصطفى
المجلد/العدد:	ع6
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1996
الصفحات:	27 - 46
رقم MD:	600472
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex, AraBase
مواضيع:	الطاعون الأسود بالمغرب ، الديموغرافيا التاريخية المغربية ، صعوبات البحث فى الديموغرافيا التاريخية المغربية
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/600472

مجلة كلية الآداب - وجدة - ع. 6. 1996 - ص، 27-45

من صعوبات البحث في الديموغرافيا التاريخية للمغرب الوسيط. الطاعون الأسود نموذجا

مصطفى نشاط
كلية الآداب. وجدة

من المعلوم أن هذا الوباء الذي ألم بمعظم مناطق العالم القديم، ظهر أول ما ظهر في اسيا الوسطى 1345، ثم انتقل عن طريق موانئ البحر المتوسط إلى أوربا وإفريقيا الشمالية في الفترة المتراوحة ما بين 1347 و 1352(1). يصف أبو المحاسن أعراض الطاعون الأسود ضمن ما يلي: "كان يخرج خلف أذن الإنسان بثرة فيخر صريعا، ثم صار يخرج للإنسان كبة فيموت أيضا سريعا، ثم خرجت بالناس خيارة فقتلت خلقا كثيرا، ثم صار الآدمي يبصق دما ويموت من وقته."(2) يتبين من خلال هذا الوصف أن الأمر يتعلق بالطاعون الرئوي، حيث تنتقل العدوى بشكل مباشر، ويلقى المصاب حتفه بعد يومين أو ثلاثة أيام من إصابته بالوباء.(3) وتجدر الإشارة إلى أن هناك نوعا آخر من الطواعين يعرف بالطاعون الدملي. ومن أعراضه ظهور الدماميل على جسم المصاب، ولكن دون أن يصل الأمر إلى مستوى بصق الدم، وتتراوح نسبة الوفاة بهذا النوع ما بين 60 و 90٪.(4)

لم تكن المصادر المغربية تميز بين الأوبئة والطواعين قبل حدوث الطاعون الأسود. فقد جاء عند ابن عذاري -على سبيل المثال- في حديثه عن أحداث سنة 571هـ مايلي: "نزل الوباء والطاعون بمدينة مراكش في شهر ذي القعدة ولم يعهد مثله فيما تقدم من الأزمنة قبله وانتهى عدد الأموات في كل يوم مائة إلى مائة وتسعين شخصا وأكثر من ذلك حتى وأن الناس لا يستطيعون بحملهم إلى الجامع للصلاة عليهم، فأمر الخليفة أن يصلى عليهم في سائر المساجد رفقا بالناس لذلك".(5)

نفس الملاحظة تنسحب على المصادر الأوربية إذ أنها صنفت الكثير من الأوبئة الفتاكة ضمن خانة الطواعين دون أن تكون كذلك، فراحت تتحدث مثلا عن طاعون أثينا وطاعون تونس الذي أودى بحياة سان لويس وغيرها من الطواعين.(6) والظاهر أن المصادر المغربية كانت تجعل باقي

الأوبئة على قدم المساواة مع الطاعون، علما بأن حدة الطاعون كانت تبلغ مستوى مرتفعا، كما هو الشأن بالنسبة للطاعون الذي أشار إليه ابن عذاري في نصه.

غير أنه مع حدوث الطاعون الأسود لسنة 1348/748 أصبح التمييز بين الأوبئة والطاعون واضحا بالمصادر، إذ أضحت تتحدث عن الطاعون الأعظم فحسب. وأصبح حدث الطاعون الأسود من أهم مرجعيات الذاكرة الجماعية بالبلدان الإسلامية والمسيحية على حد سواء. هكذا يتحدث ابن هيدور المتوفى 1413/816 في رسالته عن الطاعون الثاني إشارة منه وتذكيرا بالطاعون الأول الذي هو الطاعون الأسود.(7) وينعت ابن قنفد الطاعون الأسود بكونه "الوباء الأول العام في الأرض".(8) وبنفس الوصف تصفه حوليات أوربية معاصرة له إذ تعتبره "أول طاعون عام".(9)

ومن الجدير بالإشارة إلى أن كلمة -PESTE- وأصلها اللاتينية Pestis

– كانت تعني في البداية كل المصائب الكبرى التي تحدث للإنسان وخاصة منها الأوبئة الفتاكة، لكنه منذ الطاعون الأسود لمنتصف القرن 14، أصبحت الكلمة تطلق فقط على هذا الوباء (الطاعون) الذي أسفر عن وفيات كارثية.(10)

أ : نقص في المادة المصدرية

لعل من أهم ما يثير كل من حاول تتبع حضور الطاعون الأسود بالمغرب الأقصى قلة المادة المصدرية المتوفرة عنه. فالإشارات التي يمكن أن يستفيد منها في هذا الصدد تعد على رؤوس الأصابع. وحسب ما سمحت به المصادر التي تم الاطلاع عليها، فإن تلك الإشارات تكمن في ما يلي:

– تحدث ابن خلدون في مقدمته عن الطاعون الأسود ضمن نصف صفحة في إطار نظرته التركيبية إلى التاريخ والدولة، كما أشار إلى بعض العلماء الذين حصدهم الوباء بكتاب التعريف.

– أورد ابن مرزوق إشارات مماثلة في مسنده عن بعض العلماء المرافقين لأبي الحسن في حملته على إفريقية هلكوا من جراء الطاعون.

– أشار ابن بطوطة إلى وفاة أمه، كما أشار صاحب الأمنية إلى وفاة أحد العلماء بسبتة.(11)

– تحسر ابن الخطيب في نفاضته عما آل إليه الوضع بمراكش بفعل الطاعون، وعما آلت إليه سلا في كتابه مقنعة السائل عن المرض الوافد.(12)

– ندد ابن عباد في رسائله الكبرى(13) ببعض العادات السيئة التي أفرزها الطاعون بالمجتمع، ويعتبر –في اعتقادي – أهم مصدر تاريخي عن هذا الوباء بالمغرب المريني.

- أشار المختار السوسي ضمن إشارتين متأخرتين إلى استقرار قبيلة حربيل الصحراوية بإقليم سوس بفعل الفراغ البشرى الذي أحدثه الطاعون به، وإلى إفناء الطاعون لأسرة سانا السوسية.[14] الحصيلة إذن جد هزيلة عن وباء قال ابن خلدون بأنه "ذهب بأهل الجيل"، وكان أحد العاملين -فضلا عن عامل البدو العرب - اللذين دفعاه إلى كتابة مؤلفه العبر وإلى التأمل في حركية التاريخ.

ب : صعوبة تلمس عدد الخسائر البشرية

إلى جانب الهزالة المادة المصدرية المتوفرة عن الطاعون الأسود بالمغرب، نلاحظ أن حتى ما توفر من الإشارات عن هذا الوباء، لا يتضمن معطيات إحصائية عن مدى فداحته. فالمصادر تقف عند حدود تقديم أدبيات وصفية عن الخسائر البشرية للطاعون ضمن عبارات من قبيل "الطاعون الأعظم" أو "كاد أن يأتي على الخلق أجمع" أو أنه "لم يسمع بمثله ...".

ونتوفر مقابل ذلك على معطيات إحصائية عن الخسائر البشرية التي أحدثها الطاعون الأسود بمناطق أخرى عانت من هذا الوباء. فقد كانت فلورنسا -مثلا- تفقد يوميا شخصين من ضمن خمسة أشخاص.[15] ويحتمل المؤرخون أن تكون أوربا قد فقدت ما بين 1/4 و 9/10 سكانها من جراء الطاعون[16]. أما بخصوص البلدان الإسلامية، فإن الروايات تتحدث عن فقدان تونس لألف شخص يوميا،[17] ويشير ابن خاتمة إلى وفاة سبعين شخصا كل يوم بالمرية، و 700 شخصا بتلمسان.[18]

لماذا هذه المفارقة بين ما هو متوفر من مادة إحصائية ومادة تاريخية بصفة عامة عن الطاعون الأسود بالمغرب ومثيلتها بباقي المناطق التي أصيبت بنفس الوباء؟ هل لأن المغاربة ألفوا الموت بفعل تتالي دورة الطواعين التي يقول الوزان بأنها كانت تضرب المغرب كل 10 أو 15 سنة[19]. ثم إذا أضفنا إلى ذلك حضور العنف السياسي بكثرة في المغرب الوسيط وتعرضه بشكل دوري لباقي الجوائح من كوارث طبيعية وقحوط ومجاعات قد تدوم طويلا،[20] أفلا يمكن القول بفعل كل ذلك بأن المغربي كان يعيش باستمرار تحت رحمة الموت ما جعل الحديث عن الموت مسألة عادية والتأريخ لها من جانب الأسطغرافية المغربية أمرا غير ذي أهمية؟ أم إن تقاليد الكتابة التاريخية المغرية آنذاك، والتي كانت سجينة تسجيل الحدث السياسي قد أثنت المؤرخين عن الخوض في موضوع الأوبئة ومضاعفاتها باعتباره يصب في مجال آخر هو التاريخ الاجتماعي، والذي كما نعلم لم يكن قد أرسى بعد اعرافه وتدوول بين المؤرخين المغاربة؟ وأخيرا هل استنكاف الأسطغرافية المغربية عن الخوض طويلا في موضوع الطواعين له ارتباط بالاعتقاد

السائد ذي المرجعية الدينية، التي تعتبره عقابا موجها إلى الكفار ومناسبة للمؤمنين للظفر بالشهادة والرحمة؟[21]

إن ما يزيد المشكلة استعصاء أن الأوصاف التي تقدمها المصادر عن سكان المغرب الوسيط عادة ما تأتي في صيغتها الاستثنائية. فعند حدوث الرخاء والاستقرار نلفي بالمصادر عبارات من قبيل أن "السكان لا يحصيهم إلا خالقهم" وعند حدوث الجوائح والفتن أو أية مسغبة، تورد المصادر عبارات تفيد حدوث استنزاف بشري مثل الفناء والخراب ونهاية العالم .... والواقع أن هناك عدة مستويات بالكتابة التاريخية المغربية تقدم بالمصادر في وضعيتها الإستثنائية.[22]

إنه من الصعب تصور المضاعفات التي أحدثها أي وباء في غياب مادة إحصائية عنه، خاصة إذا كنا نفتقر بموازاة ذلك إلى معطيات يمكن الاستناد عليها حول العدد الإجمالي للسكان. والظاهر أنه قبل تأليف الحسن الوزان لكتابه وصف إفريقيا في النصف الأول من القرن 16/ 10هـ، لا نتوفر على مادة مصدرية يمكن الركون إليها لاحتمال عدد سكان المغرب. ولربما كان المهتم بالمغرب الحديث والمعاصر أحسن حظا من حيث توفر الإمكانيات لديه لطرق المواضيع المتصلة بالديمغرافيا التاريخية، علما بأننا لا ننكر أن تقديم إحصائيات يمكن الاطمئنان إليها عن عدد السكان المغرب، قد ظل دائما من المشاكل المطروحة، لأن المغرب لم يعرف نظام الحالة المدنية إلا عام 1912، ولم يجر به أول إحصاء للسكان إلا بعيد الاستقلال.[23]

وتبقى المحاولة الوحيدة -فيما أعلم- التي قدمت تقديرات عن الخسائر البشرية التي خلفها الطاعون الأسود بالمغرب تلك التي أوردها مؤلفو تاريخ المغرب حيث يتحدثون عن فقدانه لنسبة تتراوح ما بين 2/3 و 1/6 سكانه، آخذين بعين الاعتبار أن أوربا فقدت بدورها نفس النسبة من سكانها بفعل الوباء.[24]

وكيفما كان الأمر، فالظاهر أن المغرب عرف نزيفا ديمغرافيا من جراء الطاعون الأسود، وأنه احتاج إلى عدة عقود لسد الثغرة السكانية التي أحدثها الوباء، لأن خسارة نسبة قليلة من السكان مثل 10٪ قد تعوض في جيل واحد، لكن إذا ما وصلت النسبة إلى ثلث أو نصف السكان، فربما لا تعوض إلا عبر أجيال متعددة. وقد لا نبالغ إذا اعتبرنا أن الطاعون الأسود -شأنه في ذلك شأن باقي الكوارث والأوبئة الفتاكة كانت تؤدي في تاريخ المغرب إلى " مجازر " حقيقية في البنية السكانية. ولربما كانت الأوبئة أفدح الجوائح التي كان المغرب يعاني منها عبر تاريخه. خاصة عندما يتعلق الأمر بأوبئة لم يكن الطب قد اهتدى بعد إلى مكافحة جرثومتها مثل الطاعون. فعند حدوث الجفاف -مثلا- كان بإمكان الناس أن يتحركوا للبحث عن سبل جديدة

لتحقيق نوع من التوازن الغذائي دون أن يفقدوا الأمل في البقاء وفي تجاوز ظرفية الجفاف الصعبة. لكن حين حدوث الوباء الفتاك، فإنهم كانوا يستسلمون للقدر وينتظرون الموت.[25] وليس من المستبعد أن الطاعون الأسود قد زاد في وثيرة التراجع السكاني الذي شهده المغرب منذ هزيمة العقاب، ومن المحتمل كذلك أن يكون عدد سكان المغرب قد استمر في التراجع بعد القرنيين 13 و14.[26]

وإلى جانب صعوبة تقدير حجم الخسائر البشرية التي أحدثها الطاعون الأسود بالمغرب، ثمة صعوبات أخرى يطرحها التأريخ لهذا الوباء على المستوى الديمغرافي، وتتمثل هذه الصعوبات في تحديد خريطة انتشاره بالمغرب، والمدة التي قضاها بالمناطق الموبوءة، والفئات الاجتماعية التي عانت ويلاته.

ج - صعوبة تحديد جغرافية الوباء :

لا يمكننا على ضوء ما توفر لدينا من إشارات تحديد جغرافية الطاعون بالمغرب. فكل ما نعلمه أن الوباء ضرب مدن فاس وطنجة ومراكش وسلا وسبتة وإقليم سوس. ويبدو من خلال العناصر البيئية التي تقدمها بعض المصادر عن هذه المدن، أن الوسط الإيكولوجي لمعظمها كان مهيأ لاستقبال الطاعون وباقي الأوبئة الفتاكة. يصف ابن الخطيب سلا بما يلي: "بعوضها مستأسد راضع غير مفطوم، واسم للخد والخرطوم، خالع للعذار غير معظوم، تصغى لرنته الآذان، ويفتك بوكز اللسان"، أما مراكش وفاس، فقد كانت على التوالي حسب نفس المؤلف "جرذان المقابر تأكل أمواتها" و"مشبعة جرذان".[27] ويمكن القول على وجه العموم بأن الحواضر كانت أكثر إصابة بالطاعون نظرا لتجمع السكان وسهولة انتقال العدوى، بينما كانت العدوى ضعيفة بالبوادي بحكم تشتت الدور.[28] ونكاد نجهل كل شيء عن الحركات السكانية التي أحدثها الطاعون الأسود سوى أن المختار السوسي استقى رواية شفوية من أحد المهتمين بتاريخ سوس تفيد أن قبيلة "حربيل دخلت سوس من الصحراء وهي بقية قبائل لمتونة وكدالة، وأن ذلك كان بعد الطاعون الجارف لسنة 749 ... فالجزوليون يعتبرون الحربليين دخلاء فيحتقرونهم لذلك؛[29] ويتضح من خلال استعراض المدن التي ضربها الطاعون الأسود أن معظمها موجود بالشمال. ومن المفيد بالإشارة إلى أن روزنبرجي والتريكي في دراستهما عن المجاعات والأوبئة بمغرب القرنيين 16 و 17 والبزاز في أطروحته عن نفس الظاهرة بمغرب القرنيين 18 و 19 قد توصلوا إلى أن الجنوب ظل في كثير من الأحيان بمنأى عن الأوبئة

والمجاعات التي كانت تفتك أكثر بمناطقه الشمالية، وأن الجنوب كان بمثابة خزان بشري يقوم بتعويض الفراغات البشرية الحاصلة بالشمال.[30]

د : صعوبة تحديد زمن الوباء

من الصعب كذلك تحديد الفترة التي ضرب خلالها الطاعون الأسود المغرب المريني وفترة انحساره عنه. على أنه إذا كنا نعلم أن هذا الوباء أصاب تونس في شهري أبريل وماي 1348 /صفر 749هـ،[31] فمن الممكن جدا بحكم مصدره الشرقي أن يكون قد زار المغرب المريني بعد فترة قصيرة من ذلك، قد لا تتعدى ستة أشهر على أكبر تقدير، وهي المدة التي قضاها ابن بطوطة في رحلته من جربة -كان بها في صفر - إلى فاس - وقد حل بها أواخر شعبان 750هـ.[32]

وكان العالم يارسن قد اكتشف سنة 1894 أن جرثومة الطاعون ناتجة عن البراغيث والحيوانات القارضة، وأن انتشارها رهين بالظروف المناخية، إذ أن هذه الجرثومة لا تتحمل كثيرا ارتفاع درجة الحرارة.[33] ولعل هذا يجعلنا نحتمل أن تكون حدة الطاعون الأسود قد تناقصت في فصل الصيف، وضعف انتشاره كلما انتقل باتجاه الجنوب. وإذا كان طاعون 531 هـ قد دام سنة كاملة حسب ابن عذاري،[34] وذلك على الرغم من ضعف حدته مقارنة مع الطاعون الأسود، ففي الغالب أن هذا الوباء الأخير قد أطال زيارته للمغرب لأكثر من سنتين، بدليل أنه ظل يحصد ضحاياه طيلة سنة 750هـ، بل إن بعض كتب التراجم تسجل وجود ضحايا له في سنة 751هـ.[35]

ومن المفيد الاشارة في هذا الصدد إلى أن محققة الجزء الثالث من كتاب نفاضة الجراب لابن الخطيب اعتقدت أن الطاعون الأسود استمر بالمغرب الى حدود سنة 763هـ مستندة في ذلك على ما أورده ابن الخطيب عن هذه " السنة الشهباء ". والظاهر أن الأمر يتعلق بطاعون آخر لا علاقة له الطاعون الأسود، ونؤسس هذا الرأي على القرائن التالية:

- إن كلمة " الطاعون " ساقطة بالمخطوط الذي اعتمدته المحققة، بل اضافتها حسب اجتهاداتها. صحيح أن المغرب أصيب بطاعون في سنة 763، وهو ما يشير اليه ابن الخطيب في موضع آخر بصدد رحلته من فاس الى مراكش (ص 90)، غير أنه رغم هول المصاب، فالظاهر أن الأمر يتعلق بطاعون آخر يدخل ضمن دورية الاوبئة التي كانت تصيب المغرب الوسيط، والتي يتراوح الفاصل الزمني بينها - حسب الوزان - من عشر إلى عشرين سنة. وهذا الطاعون هو الذي سماه ابن هيدور بالطاعون الثاني تمييزه عن الطاعون الاسود الذي كان قد ضرب المغرب

في سنة 749هـ. ومن الصعب على ضوء ما يتوفر لدينا من اشارات تشخيص طبيعة طاعون 763 أكان من النوع الدملي أو من النوع الرئوي – على غرار الطاعون الأسود .

– ليست في النص ألذي تحدثت فيه المحققة عن الطاعون قرائن لغوية أو مجازية تسمح بإضافة كلمة الطاعون، بل قد يفهم ان اضافة كلمة قحط أو ما في معناها تناسب السياق أكثر. ومن العبارات الدالة على ذلك : لم تستأثر ببلالة رحمة – عظم الجفاف – تعاجل حلاق لم النبت – أحرقت ما كان قد نجم من باكر البذر ....

– إن القصيدة التي ذيل بها ابن الخطيب حديثه مباشرة قالها لما نزلت الأمطار بعد القحط، والابيات كلها تتحدث عن انفراج الوضعية بعد سيادة الجفاف، ولا أثر بها للحديث عن الطاعون. (35)'

هـ : الوباء وفئات المجتمع

يبدو من خلال اللوحة القاتمة التي قدمها ابن خلدون في مقدمته عن الطاعون أنه أتى على مختلف الأعمار، ولم يكن ليميز بين المستويات المادية والمراتب الاجتماعية لضحاياه، فقد "انتقص عمران الأرض بانتقاص البشر ..... وخلت الديار والمنازل ... وتبدل الساكن..!!.[36] على أنه يستشف من خلال رسائل ابن عباد أن الطاعون قد قضى أكثر على الأطفال الصغار الذين "لم يبلغوا أوان الحلم".[37] كما يوضح نفس المصدر أن الوباء حصد بصفة أكثر الفقراء والمعوزين من المجتمع، إذ كان" يتخطفهم واحدا واحدا وجماعة جماعة، ولم يعد فرق بينهم وبين القطوط والكلاب، وقد يصبح بعضهم في أزقة المدينة ... بمنزلة جيفة من الجيف؛.[38] ولعل هذه الصورة تستقيم مع ما جاء عند ابن الخطيب الذي يرى أن الوباء كان يفتك خاصة بمن هم أكثر فقرا نظرا لانعدام الشروط الصحية بالسكن ولاكتظاظ السكان.[39] بينما يبدو أن الفئة الميسورة من المجتمع كانت أقل تضررا من الطاعون بحكم توفرها على الغذاء الملائم لمواجهة المجاعة الناتجة عن الوباء. فقد كان الميسورون –الذين يسميهم ابن عباد بالمزخبين – أثناء الطاعون وبعده يتلاعبون بألوان الطعام في كل يوم" في ديارهم ومنازلهم بين خدمهم وحشمهم ويريقون ما فضل منها في المجاري والقنوات".[40] ومن المفيد أن نشير إلى أن الطاعون أفرز على مستوى السيكولوجيا الجماعية عدة ردود فعل جعلت كل طرف يحمل الطرف الآخر مسؤولية انتشار الوباء. ومن المواقف المسجلة في هذا الإطار أن الأغنياء بأوربا كانوا يتهمون الفقراء باعتبارهم مسؤولين عن الطاعون وانتشاره.[41]

وبخصوص الغذاء المتناول أثناء الطاعون بالمغرب، يطلعنا ابن عباد بإشارة تفيد أن الناس كانوا يتناولون نبات إيرنة (ايرني)[42] – حسب رواية شفوية، كان سكان شرق المغرب يتناولونها سنة 1944 باعتبارها سنة مسغبة شديدة (عام البون)، وتعرف لديهم باسم -البگوگا- وقد كان سكان المغرب يلجئون إلى تناول هذا النبات كلما حلت بهم مجاعات كبرى. يفيدنا ابن عذاري من خلال مجاعة حلت بالمغرب في سنة 632هـ بطريقة تهيىء الخبز من النبات الذي يسميه ب " تابودا التي تنبت في الصهاريج وفي الانهار والسواقي وهو شبه من القصب سم من السموم يتخير منه ما جف ويطحن كما تطحن الحنطة ويعمل منه خبز يخيل لمن يراه فإذا التمس شيئا منه باستعماله ومذاقه لم يجد شيئا ".[43] ولا شك في أن جرثومة أي وباء لا تصبح هجومية وفتاكة إلا عندما يصبح فيه الناس وقد أضعفهم سوء التغذية.[44] ونشير إلى أن إحدى الدراسات الأوربية خلصت إلى أن الطاعون الأسوء أحدث ببعض المناطق مثل ألمانيا هوة واسعة بين الأغنياء والفقراء،[45] ولا يتردد أحد الباحثين بحكم إصابة الفقراء أكثر بهذا الطاعون عن نعته "بالوباء البروليتاري".[46]

ومما زاد في حدة المجاعة الناتجة عن الطاعون وبالتالي في كثرة الوفيات، ضعف الوسائل الطبية لمواجهة الوباء أو انتفاؤها كلية، لأن الناس حسب الوزان لم يكونوا يهتمون به، وعندما كان يحل بالمغرب كان يفتك بالعديد منهم " ولا يستعمل أي دواء باستثناء التمسح بالتراب الأرميني حول دمل الطاعون".[47] وفي مجتمع يحكمه المقدس كان اللجوء إلى المتصوفة أمرا مطلوبا من أجل الاستشفاء. يحكي ابن عباد في هذا الصدد كيف أن أحد الآباء جاء عنده بماء وحناء برسم أن يرقي له ليشفي أبناءه الثلاثة، لكن العملية كانت بدون جدوى، لأنهم ماتوا كلهم من جراء الطاعون.[48] ومن اللافت للانتباه أن مصادر المغرب الوسيط، وخاصة المناقبية منها تعج بالإشارات التي تفيد -حسب منطوقها- أن المتصوفة كثيرا ما تمكنوا من علاج أمراض مستعصية عجز أطباء العصر عن علاجها مثل البرص والعمى والقروح،[49] لكنها لا تورد ما يفيد أنهم بكراماتهم تمكنوا من تجاوز واختراق مرض الطاعون. إن كرامات المتصوفة في الإشفاء والعلاج تنحصر فقط في الأمراض ذات الطابع الفردي، أما الأمراض الوبائية مثل الطاعون فإنها "لا تظهر مطلقا في كتب المناقب إلا إذا اقترنت بسبب وفاة المترجم له، فكأنما وقع الإجماع علي عجز بركة الصالح عن مقاومة كوارث صحية في مستوى الأوبئة الطاعونية".[50]

وقد ساهم ارتفاع أسعار المواد في احتداد المجاعة الناتجة عن الطاعون الأسود، وساعد على ذلك لجوء بعض التجار إلي الاحتكار، الشيء الذي استنكره عدد من الفقهاء مثل ابن

خلدون وابن عباد وأحمد ابن قاسم القباب (توفي 778 / 1377). ولتقديم صورة حية عما آلت إليه الأسعار بالمغرب المريني بفعل الطاعون ، يكفي أن نستدل بما جاء لدى ابن عباد من اشارات عن ذلك، فقد أصبح القمح بمثابة " الأدوية التي يصفها الطبيب للمرضى" وإذا كان المرء يشتري صاع الحنطة بعشرة دراهم أصبح يشتريه بخمسة عشر وأكثر، وإن كان يشتري من الباكور أربعين بدرهم، أصبح بعشرين أو أكثر وقس على ذلك .(51)

و : الوباء وسيكولوجية الإنسان :

من المعلوم أن الديمغرافية التاريخية انتقلت في الفترة الراهنة من تحليل المكنزمات الديمغرافية إلى تحليل السلوكات الجماعية. فلم يعد لدينا كما يقرر لادوري تاريخ للسكان كما كان عليه الشأن سابقا، وإنما أصبحنا أمام ديمغرافيا تاريخية.(52) وعلى هذا الأساس لم يعد هذا الاتجاه التاريخي يبحث في المضاعفات الديمغرافية للكوارث والمجاعات والأوبئة فحسب، بل يتجاوزها للتأمل في نوعية الحالة النفسية زمن الجائحة وردود فعل الإنسان السلوكية.

برزت كارثة الطاعون الأسود -كغيرها من الكوارث الفتاكة- في مخيال الناس واعتقاداتهم من خلال موقف غيبي يجعل الطاعون أمرا مقدرا حل بالناس بفعل سقوطهم في المحظورات وتفسخ أخلاقياتهم. ويبلور هذا الموقف التعليل الذي يقدمه ابن عباد لأحد القحوط الذي ألم بالمغرب بعد الطاعون الأسود لما يقول: "إن الذي ينافي الاستسقا إنما هو المنكرات التي يفعلها عوام الناس والرعية ولا احتاج إلى ذكرها لكثرتها، فيكون ما أصيبوا به من القحط عقوبة لهم أو تأديبا على ما صنعوا من ذلك".(53) غير أنه إلى جانب هذا التفسير الغيبي لانتشار الطاعون آنذاك بالمغرب المريني، ثمة بعض التفسيرات التي انطلقت من حيثيات موضوعية لتعليل هذه الظاهرة. ويمكننا أن نسجل في هذا الصدد تفسيرين رئيسيين. التفسير الأول يمثله ابن خلدون الذي يرى أن السبب المباشر للطاعون يعود إلى فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة ... فإذا كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة".(54) وهذا الوباء شأنه في ذلك شأن باقي الأوبئة الفتاكة يحل بالدول عند انهيارها ويقترن بأزمات متشعبة كانعدام الأمن وضعف العصبية الحاكمة وتاكل قوى الإنتاج ... فتناول الطاعون عند ابن خلدون لا ينفصل عن نظريته العامة عن الدولة وأطوارها.

أما التفسير الثاني فنلمسه عند ابن عباد الذي وإن فسر الطاعون من موقف غيبي -كما سبقت الإشارة- بحكم طغيان البعد الصوفي على رسائله، فإنه لم يغفل التنبيه إلى بعض الأسباب الموضوعية التي فعلت فعلها في تكريس الأزمة الاجتماعية ممثلة في عدة مصائب وعلى

رأسها مصيبة الطاعون الأسود. فإذا كان قد قرن بين حلول الطاعون – وباقي الكوارث – والفساد الاجتماعي، فإنه يحمل مسؤولية ذلك للعلماء إذ "بحبهم للدنيا".[55] حانوا عن حقيقة دورهم الطبيعي كموجهين وواعظين للحكام وللمجتمع ككل. ونعلم من جهة أخرى أن ابن عباد ندد بأسلوب لا يخلو من الحزم بالسياسة الضرائبية لبني مرين وبعمالهم الذين "تمكنوا من الرعية كل التمكن وأحدثوا سننا غير مشروعة".[56] ويستطرد ابن عباد في التنديد بتردي المجتمع و"الوقت المنحوس".[57] الذي "بلغ الغاية في الفساد وشملت الفتن جميع العباد إلامن عصم الله تعالى منهم والله يعيذهم من شر الأشـــرار وتسلط الفجار".[58] وبعد أن يدين سلوك معاصريه سواء أكانوا حاكمين أو محكومين يخلص إلى أن" الخلق كلهم مشتركون في هذا البلاء"،[59] وفي ذلك إحالة إلى مختلف البلايا التي حلت بالمجتمع وفي طليعتها "بلية" الطاعون الأسود.

لقد أفرز هذا الوباء على مستوى السيكولوجيا الجماعية بأوربا حقدا مجتمعيا من خلال بروز المشاعر المناهضة لليهود باعتبارهم مسؤولين عن تفشي الطاعون بفعل ما ألحقوه بالآبار والقنوات من تلوث.[60] أما بالنسبة للمغرب المريني، فإننا لم نعثر ضمن المصادر التي تم الاطلاع عليها علـــي أيـة إشـــارة تفيـد اتهـــام العنصر اليهودي بانتشار الطاعون، علما بأن مغرب القرنيين 18 و19 شهد مثل هذا الموقف لما ربط البعض بين انتشار المناكر لدى اليهود وبين انتشار الطاعون.[61] على أنه تجدر الإشارة إلى أن أصابع الاتهام كانت قد وجهت نحو اليهود في العصر المريني باعتبارهم مسؤولين عن أزمة أخرى شهدها المغرب بموازاة مع الطاعون، وهي الأزمة النقدية التي نتجت عن تزويرهم للعملة.[62] لقد كان الجمع بين العناصر غير المرغوب فيها أمرا متداولا وشائعا على مستوى ذهنيات العصر الوسيط، "فكما أن اليهود اعتبروا مسؤولين عن الطاعون بمعظم البلدان المسيحية، وكما أن المسلمين واليهود معا اعتبروا مسؤولين عنه ببعض الدول الأخرى، فإن سكان إفريقية تمثلوا وصول المرينيين إلى تونس كطالع سيء استتبعه العقاب الملائم لذلك. لكن بما أن التعبير كان متوقفا على النخبة، وبما أن هذه النخبة كانت تنظر إلى الوباء من خلال وجهات مختلفة، فإنه من الحتمي ألا تتوفر لدينا هنا كذلك إشارات عن الموقف الحقيقي للسكان".[63]

لقد وجدت بعض السلوكات والقيم التربة صالحة للانتشار زمن الطاعون وهكذا لم يتوان ابن عباد عن التنديد بشيوع الأنانية بين معاصريه إذ صار الشخص "لا يهمه إلا أمر نفسه".[64] كما أدى البؤس الاجتماعي الذي خلفه الطاعون إلى تفاقم ظاهرة اللصوصية وقطع الطرق حتى

إن بعض الناطق التي كانت تعرف فيما مضى أمنا نسبيا، غدت مرتعا لقطاع الطرق بعيد الطاعون. ويحدثنا ابن قنفد في هذا الصدد كيف استنكف عن الذهاب إلى تادلا نظرا "لخوف الطريق".[65]

ليس من الغريب أن تكون الأوبئة الفتاكة بما تخلفه من شروخ في الحالة النفسية للسكان مناسبة -كما يرى برابن ولوكوف- لتزايد الحاجة إلى المنقذين.[66] وفي مجتمع يوجه المقدس معظم سلوكاته، وفي جو مشحون بالخوف وبالرغبة في التوبة والخلاص لرفع المصائب، من الطبيعي أن يشتد في غماره عود التصوف. ولربما قد لا نغالي إذا اعتبرنا أن هناك تلازما بين الواقع المتأزم وتنامي ظاهرة الولاية. وإذا كانت هذه الظاهرة قد ضربت بجذورها في تاريخ المغرب الإسلامي قبل الطاعون الأسود، فليس من المستبعد أن يكون الوباء الأسود قد زاد من رقعة انتشارها وتفاقمها، وقد لاحظ ابن قنفد بعد أن زار المغرب بأن أرضه كانت تنبت الأولياء كما تنبت الكلأ.

وإلى جانب انتشار ظاهرة الولاية، عرف المغرب ما بعد الطاعون الأسود انتشارا لفكرة المهدوية لما تختزنه لدى معتنقيها من أمل في الانعتاق من الوضعية المتأزمة. ومن أهم الطوائف الدينية التي كانت تنتظر المهدي ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا، تلك التي يسميها ابن خلدون بالفاطمية، فقد كان بعض عناصرها يقصدون رباط ماسة بأرض سوس يتحينون هناك لقاء المهدي، بينما ظهرت فرقة بتنمل تبشر بعودة دولة المصامدة على يد المهدي المنتظر.[67] ودون أن نطيل في الحديث عن الحركة الصوفية وعن المهدوية التي شهدها المغرب بعد الطاعون الأسود -لأن ذلك قد يحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها- يهمنا أن نؤكد على أن هذه الحركات استندت في بعض مبررات وجودها على التراكمات النفسية التي خلفها هذا الوباء في الذهنية الجماعية.

لقد تركت الطواعين مجموعة من الكتابات التي حاولت أن تبرز موقف الناس من هذا النوع من الأوبئة ضمن ما أصبح يعرف حاليا "بأدب الطواعين". غير أنه -حسب علمي- لا نتوفر على مثل هذا الأدب المتعلق بالمغرب المريني. والغالب على الظن أن هذا الأدب المغربي ما زال لم ينفض عنه الغبار بعد، لأن دولا أخرى بالمغرب الإسلامي، والتي سادت بها تقريبا نفس البنيات الاعتقادية والأنماط الفكرية الموجودة بالمغرب المريني، عرفت مثل هذا النوع من الأدب. فقد ألف -مثلا- أحد فقهاء تونس كتابا سماه "المسنون في أحكام الطاعون" ناقش فيه مسألة حقيقة العدوى أو عدمها.[68] وقد أفضت هذه المسألة إلى سجال ساخن بين الأندلسيين ساهمت فيه

مجموعة من الفقهاء والعلماء مثل ابن الخطيب وابن خاتمة وابن هيدور وغيرهم. وبغض النظر عن اختلاف الرؤى التي اتخذها هؤلاء حول هذه المسألة، فإنها كانت تصب عموما في تصورين: أحدهما يعتقد بأن العدوى حقيقية، ولذلك وجب الفرار من الوباء، والآخر يحل محلها إرادة القدر، ولذلك لا فائدة في الفرار لأنه أمر محتوم.(69)

ز : أسئلة معلقة :

لقد قطعت أوربا شوطا بعيدا في دراسة الطاعون الأسود تجاوزت الرصد العام لهذا الوباء إلى القيام بدراسات منوغرافية عنه. أما نحن، فما أحوجنا إلى دراسة أكاديمية قد تهتدي إلى مصادر جديدة وتكشف عن حقيقة الحضور التاريخي للطاعون الأسود بالمغرب. وإذا كانت وضعية معرفتنا عن هذا عن هذاالوباء ما تزال فضفافة وصنحلة، والحالة أننا أمام أفتك وباء شهده المغرب الوسيط، فما هو نصيبنا من المعرفة عن باقي الأوبئة والمجاعات والكوارث التي تشكل بدورها مادة وموضوعا للديموغرافيا التاريخية؟ إن السؤال يجب في الواقع أن يمتد ليطال ظواهر أخرى من تاريخنا، بل وفترات كاملة من هذا التاريخ التي مازالت لم تلق بعد نفس الجاذبية التي حظيت بها فترات أخرى من جانب الدارسين، مثل فترتي القرن 16 و 19 (على سبيل المثال كم هوعدد الأبحاث الأكاديمية المسجلة أو المنجزة حول القرون الأربعة الأولى من تاريخ المغرب الإسلامي).

إن سيلا من الأسئلة حول الطاعون الأسود باعتباره موضوعا للديموغرافيا التاريخية يبقى معلقا. ومن هذه الأسئلة: ما هي حقيقة المضاعفات البشرية لهذا الوباء بالمغرب، وما هي طبيعة الحركات السكانية التي تمخضت عنه، وهل أحدث نقصا في اليد العاملة -كما حدث بأوربا-، وما علاقة البادية بالمدينة على ضوء هذه المضاعفات، وما هي طبيعة الدور الذي لعبته السلطة المرينية لمواجهة الوباء، وهل شكل الطاعون الأسود -مثلا- مناسبة كما لاحظ برابن لإطلاق سراح المسجونين للتخفيف من الغضب الإلهي ...؟

بطبيعة الحال تبقى هذه الأسئلة مرتبطة بحقل الديمغرافيا التاريخية علما بأن هذا الحقل قد ارتقى لدى مدرسة الحوليات إلى أنتروبولوجيا تاريخية تستند على الإحصائيات السكانية لتزيل النقاب عن عدة مستويات مثل التصور الذي يكونه الناس عن أنفسهم وأجسامهم، وطرق منع الحمل (ولنا بالمعيار إشارات عنها)، وتاريخ الجنس بما في ذلك العلاقات غير الشرعية، وموقف الإنسان من الحياة والموت. لقد ذهب لادوري LA DURIE في هذا الشأن إلى أن الديموغرافيا التاريخية هي أيضا تفكر في الموت.

اعتبر البعض القرن 14/8 من أسوء العصور التي عرفها الحوض المتوسطي نظرا لكثرة الأزمات التي ميزته، وعلى رأسها أزمة الطاعون الأسود. غير أنه مازلنا على ما يبدو لم نعط بعد لهذا الوباء ثقله وفعله الحقيقي في تاريخ المغرب. ومن المفيد أن نشير إلى أن ذ القبلي أكد على أهمية الطاعون الأسود في تعليل هزيمة أبي الحسن المريني بالقيروان، التي عصفت بتجربة هذا السلطان من أجل إعادة توحيد بلاد المغرب. ففضلا عن الضربات التي تعرض لها الجيش المريني أمام القبائل العربية قرب القيروان، فإنه ليس من المستبعد أن يكون الطاعون الأسود قد ساهم في عزل السلطان المريني عن بقية دولته، كما يمكن أن يكون قد سهل من مأمورية أبي عنان للاستئثار بالحكم.(71)

لربما لا نبالغ إذا اعتبرنا الأوبئة والمجاعات والكوارث من أهم الأدوات التحليلية التي تساهم في فهم وتحليل أكبر لتاريخ المغرب والظاهر أن كثيرا من تحركات السلطة ومن الحركات الاجتماعية قد نجد تفسيرا لفعلها من خلال رصد وتتبع الجوائح التي واكبتها. وبدون أن نقول بوجود حتمية طبيعية وجغرافية قاتلة، يبدو أن الجوائح قد تساهم كأداة إلى جانب أداتي العصبية والصراع حول الطرق القوافلية في تعميق فهمنا للتاريخ المغربي الوسيط.

ما زالت الخزانة التاريخية المغربية في حاجة ماسة إلى مزيد من الأبحاث حول حضور الأوبئة والمجاعات والكوارث في تاريخ المغرب. فإلى جانب دراسة روزنبرجي والتريكي عن هذه الظاهرة بمغرب القرنين 16 و17م، لم ينجز لحد الآن –حسب علمي– سوى بحثين أكاديميين، أولهما للأستاذ استيتو عن الأوبئة والمجاعات بالمغرب في ق 16م – وهو مرقون بكلية الاداب بفاس ووجدة– وثانيهما للأستاذ البزاز حول نفس الظاهرة بالمغرب خلال القرنين 18 و 19م. غير أن كل محاولة فردية في هذا الإطار – كما يعترف البزاز في مقدمة دراسته – عليها أن تدفع ضريبة المخاطرة لأن مقاربة تاريخ الأوبئة والمجاعات والكوارث تتقاطع بها عدة علوم مثل علم النفس والجغرافيا المناخية والطب وغيرها من العلوم. ومن تم فإن الاهتمام بهذا الاتجاه التاريخي مرهون شأنه في ذلك شأن باقي الاتجاهات التاريخية بالعمل في خلايا ومجموعات بحث.

لا يسعنا أن ننهي هذا العرض دون طرح بعض التساؤلات التي ترتبط، كذلك بالحضور التاريخي للطاعون الأسود وبتداعياته بالمغرب وبالمغرب الإسلامي عموما. ومن هذه التساؤلات :

– ألم يكن للطاعون الأسود دور ما في تراجع الغرب الإسلامي خاصة وأنه قضى على عينة كبيرة من خيرة علمائه؟ نقرأ في كتاب التعريف لابن خلدون "وكان في جملة السلطان أبي

الحسن جماعة كبيرة من فضلاء المغرب وأعيانه، هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق".(72) ولعله من المثير حقا أن معظم العلماء الذين توفوا أواخر العقد الخامس من القرن الثامن الهجري ممن ترد أسماؤهم بكتب التراجم، هلكوا بفعل الطاعون الأسود. وفيما يلي لائحة لبعض العلماء الذين توفوا بالطاعون -وقد أورد البزاز بعضهم في إحدى مقالاته-.(73)

إسم الهالك، سنة الوفاة ومكانها	المصدر وأهم ما جاء في الإشارة
عبد المهيمن بن محمد الحضرمي توفي بتونس 749.	كان يرجع إليه السلطان في قراءة الكتب -الإحاطة- ج4، ص18.
يحيى بن محمد بن عمر بن رشيد الفهري توفي بتونس 749.	ولي القضاء بفاس وكان عدلا في سماط شهودها وخطيبا بقصبتها. جذوة الاقتباس، ج2 ص.539
محمد بن عبد الله بن عبد النور التلمساني توفي بتونس 749.	كان فقيها بتلمسان، المسند ص 267 درة الحجال، ج2، ص136.
محمد بن يحيى بن النجار التلمساني	كان إماما في النجوم وأحكامها. جذوة الاقتباس، ج1 ص302.
أحمد بن شعيب النحوي، توفي بتونس 749.	كاتب وطبيب السلطان أبي الحسن العبر، ج7، ص 841.
ابراهيم بن عبد الله بن علي بن يحيى بن خلف، توفي 749.	أخذ النحو عن البهاء بن النحاس، ولازم أبا حيان ... درة الحجال، ج1، ص194 .
طيرس بن الجندي بن علاء الدين النحوي توفي 749 .	درة الحجال، ج1 ص280 .
محمد بن جابر بن محمد بن قاسم القيسي، توفي 749.	كان واسع الرواية، قيدر بخطه أجزاء كثيرة من تواليف المتأخرين. درة الحجال، ج2، ص 102.
محمد بن عبد الله الندرومي توفي بفاس 749.	كان قاضيا بفاس وتلمسان جذوة الاقتباس ج1، ص 302.

إسم الهالك، سنة الوفاة ومكانها	المصدر وأهم ما جاء في الإشارة
أبو عبد الله الرندي الفاسي توفي .749	كان حافظا للمذهب، قائما به، وإماما في العربية.المسند، ص 261.
أبو موسى بن الإمام، توفي 749.	نظمه أبو الحسن في مجلسه. العبر، ج7، ص 824، المسند ص265.
أبو القاسم بن عبد الله توفي 749.	تخطط بالعدالة والكتابة والخطابة كان يقضي منه في معارفه العجب العجاب المسند، ص276.
أبو الفضل بن أبي محمد عبد الله بن أبي مرين، توفي بتونس 749.	المسند صص.264-265
أبو سرحان مسعود بن عمر الفودودي، توفي بتونس 749.	كان وزيرا بدولة أبي الحسن المسند، ص 364.
يحيى بن يحيى بن مليل توفي بفاس 750	بيتهم بيت فقه، جذوة الاقتباس ج2، ص 538.
أحمد بن هشام، توفي 750.	كان مشاركا في الفرائض والأدب. درة الحجال ج1 ص74.
محمد الأنصاري الجزيري، توفي بسبتة 750.	خطيب جامع سبتة الأعظم، مجهول بلغة الأمنية، ص 28.
سعد بن أحمد بن ابراهيم التجيبي	كان حافظا، مصنفا، ألف كتبا جمة درة الحجال، ج3، ص 292.

- لماذا تمكنت أوربا من مواجهة الأوبئة؟ فمن الملاحظ بالنسبة للطاعون أنها اتخذت إجراءات ناجحة لمواجهته بشكل علمي منذ القرن 15م، وذلك بتجميع المصابين وعزلهم، وبمنع إعادة بيع الألبسة زمن الطاعون، كما أن المنازل الموبوءة أصبحت تحمل علامات مميزة لترش بالكبريت، فضلا على تبني السلطة لأسلوب الإكثار من بناء المستشفيات، بينما لم ينتشر اتخاذ هذه الاحتياطات بشكل واسع بالبلاد الإسلامية إلا بعد فترة ليست بالقصيرة [74]. وإنه لمن المثير أن التجارة الأوربية قد استعادت حيويتها منذ 1350، [75] مما يعني أن إعادة بناء الاقتصاد الأوربي قد جرت في فترة ما زالت أوربا تعيش إبانها في خضم الوباء الأعظم.

- أخيرا لماذا تشكل الأزمات الكبرى في التاريخ الأوربي حافزا لرفع التحدي ولتحقيق نقلات حضارية نوعية؟ فقد خرجت أوربا من التاريخ القديم بعد أزمة الغزوات الجرمانية لتدخل العصر الوسيط، وخرجت من هذه الحقبة بعد حدوث الطاعون الأسود والأزمة النقدية لتدخل العصور الحديثة، وقد كانت الاكتشافات الجغرافية إحدى أهم السبل التي تبنتها أوربا لتجاوز المشاكل التي عانت منها بفعل أزمتي الطاعون الأسود والأزمة النقدية، [76] ولماذا تكاد تنتفي مثل هذه الظاهرة بالتاريخ العربي، فالأزمة قلما تولد التحدي، بل إنها تفرز أزمة وأزمات جديدة.

الهوامش

1) - لأخذ فكرة واضحة عن الطاعون الأسود، وخاصة بأوربا، يمكن الرجوع إلى: Carpentier(e), Autour de la peste noire, famines et épidémies dans l'histoire du 14e siècle, annales E.S.C. 1962.

2)- نقلا عن يوسف درويش، الطاعون الأسود والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام في العصر المملوكي، دراسات عربية، دمشق، أكتوبر 1983، ص 74.

3)-Burguière (A), Dictionnaire des sciences historiques, matière: Peste, par BIRABIN (J.N.), 1986, p. 505.

4)- Carpentier, op. cit p. 1071.

5)- ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، البيضاء 1985، ص 136.

6)- BIRABIN, op. cit. p. 505.

7)- ابن هيدور (التادلي)، ماهية الأمراض الوبائية، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 9605، نقلا عن البزاز محمد، حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط، مجلة كلية الآداب، عدد 18، 1993، ص 104.

8)- ابن قنفد، كتاب الوفيات، تحقيق عادل نويهض، بيروت، ط4، ص 354.

9)- Carpentier, op. cit. p. 1082.

10)- Birabin, op. cit. p.505.

11)- مجهول، بلغة الأمنية ... الرباط، 1969، ص 28.

12)- نشرها مولر (م.ج)، بايير، 1863.

13)- ابن عباد (الرندي)، الرسائل الكبرى، مطبعة المعلم الأزرق (حجرية) ص 1320.

14)- المختار السوسي، اليغ قديما وحديثا، صص 239-240. والمعسول ج 5، ص 90.
وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف يعلق على الإشارة الواردة بالمعسول عن انقراض أسرة سانا بعد أن أفناها الطاعون بأنه طاعون 741 المشهور، ولعله كان يقصد سنة 749هـ ولا يعدو أن يكون الخطأ مطبعيا خاصة وأنه يضبط تاريخ هذا الوباء بكتابه اليغ.

15)- Goglin (J.L), les misérables dans l'occident medieval, ed. du seuil, 1976, p.101.

16)- Carpentier, op.cit, p. 1071.
وللدلالة على هول الطاعون الأسود، نورد شهادة حية للفرنسسكاني الإرلندي TohN Clyn الذي كان يكتب إبان الوباء إحدى كتاباته. ومما جاء فيها: "إنني أكتب، وأنتظر الموت من ضمن الموتى" وفعلا فقد توفي من جراء الطاعون. أنظر:
"inter mortuos mortem expectans" Renovard (Y.) etudes d'histoires medièvales, S.EC.P.E.N. Paris, TI p. 158.

17)- KABLY (M.), sociètè, pouvoir et religion au Maroc à le fin du moyen-age, Paris, 1986, p. 142.

18) - ابن خاتمة (أبو جعفر) تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، الخزانة العامة، رقم الميكروفيلم 1212، الرباط، عن البزاز، الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14، مجلة كلية الآداب، الرباط، عدد 16، ص 110.

19) - عرفت -مثلا- سنة 722هـ هبوب رياح عاتية على كل من فاس ومكناسة وتازى وأحوازها، وبعد سنة من ذلك شهد المغرب مجاعة كبيرة ناتجة عن الجفاف، وقد استمرت هذه المجاعة خلال السنة الموالية كذلك.
ويتحدث ابن أبي زرع باعتباره شاهدا عنها بكون الناس أصبحوا يأكلون الجيفة والميتة، روض القرطاس، ص 401 وص 412. ومن اللافت للانتباه أن المغرب الوسيط كثيرا ما كان يعرف عدة جوائح بشكل متزامن ومتقارب جدا.

20) Sublet (J), la peste aux rête de la juriprudence, studia islamica XXXII, 1971, pp. 144-145.

من الأحاديث التي تحدثت عن الطاعون: "المطعون شهيد" هو رحمة لهذه الأمة" وجاء في حديث آخر "اللهم اجعل فناء أمتي بالطعن والطاعون. وقالت عائشة رضي الله عنها: يارسول الله: الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: غدة كغدة البعير تخرج في المرافق والآباط". وللوقوف على المزيد في هذا الموضوع أنظر: الونشريسي المعيار المغرب، الرباط 1981، ج 11، ص 352 وما بعدها.

21)- بخصوص الأسعار -مثلا- تتحدث المصادر عن سيادة الرخاء المفرط وبالتالي عن انخفاض الأسعار إلى درجة أن السلع "لم تجد من يشتريها"، أو أنها تتحدث عن الشدة وعن ارتفاع الأسعار حتى أن مادة القمح كما جاء عند ابن عباد بخصوص الطاعون الأسود الذي يهمنا هنا أصبحت "من جملة الأدوية التي يصفها الطبيب للمرضى"، أنظر ابن عباد، ص 207.

22)- البزار محمد، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر، مطبوعات كلية الآداب، الرباط 1992، ص 24.

23)- Brignon et autres, histoire du Maroc, 1967, p.15

24)- الناصري محمد، الكوارث الطبيعية والحتمية التاريخية، مجلة كلية الآداب. الرباط، عدد 15 ص 80 وما بعدها.

25)- Laroui 5(A.), Histoire du Maghreb, T1, 1976, p.199.

26)- ابن الخطيب، معيار الاختيار، 1976 ص 156-164-179.

27)- Birabin, op,cit. p.507.

28)- المختار السوسي، اليغ قديما وحديثا، صص 239-240.

29)- Rosenberger (B) et Triki (H.) Famines et épidemies au Maroc aux XVI et XVIIIe s. Hespéris -Tamuda, vol. VI, 1975, p.70

وانظر كذلك، البزاز، تاريخ ... ص 146.

30)- Kably, op.cit. p. 142.

31)- رحلة ابن بطوطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1987، ص 666.

32)- Birabin, op.cit. p. 505.

33)- ابن عذاري، ص 136.

34)- ابن القاضي، درة الحجال، ج3 ص 292.

35)- نفاضة الجراب، ج3، تحقيق السعدية فاغية ط. السنة ص. أشكر بالمناسبة الزميل مصطفى الغديري – أستاذ الأدب الأندلسي بكلية الآداب بوجدة– الذي ساعدني على التحليل الأدبي للنص.

36)- ابن خلدون، المقدمة، طبعة وافي، القاهرة، 1965، ج 1 ص 406.

37)- ابن عباد ص 120 وص 165.

38)- نفس المصدر، صص 230-231.

39)- ابن الخطيب، مقنعة السائل، صص 11-12.

40)- ابن عباد، ص 153.

41)- Birabin , opicit. p. 508

42)- ابن عباد، مصدر سابق.

43)- البزاز، تاريخ ... ص 357.

44)- بوغييراندري، الأنتروبولوجيا التاريخية، ترجمة محمد حبيدة، مجلة أمل، عدد 5، 1994، ص 110.

45)- Carpentier, op.cit. p. 1038.

46)- Ibid, p.1069.

47)- الوزان، ص 68.

48)- ابن عباد، ص 203.

49)- انظر مثلا الترجمة 117 في كتاب التشوف لابن الزيات ص 269 حيث تشير الرواية المنقبية إلى نجاح أحد المتصوفة في إشفاء طفلة من برص عجز أطباء فاس عن علاجه.

65)- ابن قنفد، أنس الفقير، الرباط، 1965، ص 26. وانضاف الطاعون الأسود –كعامل اجتماعي في إفراز ذلك الجو القلق بالمغرب آنذاك– إلى جانب عوامل أخرى يتداخل فيها السياسي (أزمة الحكم) والاقتصادي (فقدان المغرب المريني التحكم في الطرق القوافلية الغربية).

66)- Birabin (j.N) et Le Goff (J), la peste dans le haut moyen A.S.C.E âge nov -dec. 1969, p. 1498.

67)- انظر بشأن ذلك، المنوني، ورقات، ص 246 وما بعدها.

68)- ابن قنفد ، كتاب الوفيات، صص 356-356.

69)- أومليل (علي) الخطاب التاريخي، دراسة لمنهجية ابن خلدون، صص . 88 - 89

70)- Birabin, dans dictionnaire ...op.cit p. 509

71)- Kably, op.cit. p. 143 et p. 159.

72)- ابن خلدون، التعريف بان خلدون ورحلته غربا وشرق، دار الكتاب اللبناني، 1979، ص45.

73)- البزاز، حول المجاعات ... ص 117.

74)- Birabin, op.cit. p. 508

75)- Carpentier, op.cit. p. 1090.

76)- Chaunu (p.), l'expansion européene du 13e au 15e siècle, PUF, Paris, 1969, p. 104.